لـقـد حَـمَـلَـتْ أَيْـدِي الـزَّمـانِ مَـطِـيَّـتـي
عـلـى مَـرْكَـبٍ مُـسْـتَـعْـطِـلِ الـنَّـابِ والـظُّـفْـرِ(١)

١٠٥
اسمعوا عذري

[الطويل]

أَقـولُ لأَصـحـابـي وقـد طَـلَـبـوا الـصِّـلَـى:
تَعَالَوا اصْطَلُوا إِنْ خِفْتُمُ القُرَّ من صَدْرِي(٢)
فَـإِنَّ لَـهِـيـبَ الـنَّـارِ بَـيْـنَ جَـوانِـحِـي
إِذا ذُكِـرَتْ لَـيْـلَـى أَحَـرُّ مِـنَ الْـجَـمْـرِ(٣)
فَـقَـالُـوا: نُـرِيـدُ الْـمـاءَ نَـسْـقِـي ونَـسْـتَـقِـي
فَقُلْتُ: تَعَالَوْا فَاسْتَقُوا الْمَاءَ مِنْ نَهْرِي(٤)
فَـقَـالـوا: وَأَيْـنَ الـنَّـهْـرُ؟ قُـلْـتُ: مَـدَامِـعـي
سَـيُـغْـنِـيـكُـمُ دَمْـعُ الْـجُـفُـونِ عَـنِ الْـحَـفْـرِ(٥)
فَـقَـالُـوا: وَلِـمْ هَـذَا؟ فَـقُـلْـتُ: مِـنَ الْـهَـوَى
فَقَالُوا: لَحَاكَ اللَّه، قُلْتُ: اسْمَعُوا عُذْرِي(٦)
أَلَـمْ تَـعْـرِفُـوا وَجْـهـاً لِـلَـيْـلَـى شُـعَـاعُـهُ
إِذَا بَـرَزَتْ يُـغْـنـي عَـنِ الـشَّـمْـسِ والْـبَـدْرِ(٧)؟

---

(١) ينعى الشاعر على زمن أهداه مطية لا ناب لها ولا ظفر، فلا فائدة منها؛ وذاك قدره، لا معين ولا من يأخذ بيده ليحصل على ما يتمنّاه في هذا الوجود.

(٢) و (٣) الصِّلى: الدفء. اصطلوا: اطلبوا الدفء. القُرُّ: البرد الشديد. يطلب الشاعر من صحبه أن يستمدوا الدفء من صدره الملتهب. فبإمكانه أن يبعد عنهم الإحساس بالبرد القارس، لأن ذكر ليلى يجعل النار يستعر لهيبها بين ضلوعه.

(٤) كان ردّ الأصحاب بأنهم يرغبون ماءً ليرتووا ويسقوا أنعامهم فكان جواب الشاعر أن نهره مترع، فما عليهم إلّا أن يردوه ولهم ما أرادوا.

(٥) راح هؤلاء يستفسرون عن موقع ذلك النهر، فأشار الشاعر إلى جفون عينيه؛ فدموعها لا تجفّ، ممّا يوفّر عليهم طلب الماء ممّا يحفرون في باطن الأرض.

(٦) و (٧) راح هؤلاء يستعلمون عن الأخبار، فردّ الشاعر أن الحبّ سبب آلامه ومدرّ =

يَـمُـرُّ بِـوَهْـمِـي خَـاطِـرٌ فَـيَـؤُدُّهَـا
وَيَـجْـرَحُـهَـا دُونَ الْـعِـيَـانِ لَـهَـا فِـكْـرِي[١]

مُـنَـعَّـمَـةٌ لَـوْ قَـابَـلَ الـبَـدْرَ وَجْـهُـهَـا
لَـكَـانَ لَـهُ فَـضْـلٌ مُـبِـيـنٌ عـلـى الـبَـدْرِ[٢]

هِـلالِـيَّـةُ الأَعْـلَـى مُـلـطَّـخَـةُ الـذُّرَى
مُـرَجْـرَجَـةُ الـسُّـفْـلَـى مُـهَـفْـهَـفَـةُ الْـخَـصْـرِ[٣]

مُـبَـتَّـلَـةٌ هَـيْـفَـاءُ مَـهْـضُـومَـةُ الْـحَـشَـا
مُـوَرَّدَةُ الْـخَـدَّيْـنِ وَاضِـحَـةُ الـثَّـغْـرِ[٤]

خَـدَلَّـجَـةُ الـسَّـاقَـيْـنِ بَـضٌّ بَـضِـيـضَـةٌ
مُـفَـلَّـجَـةُ الأَنْـيَـابِ مَـصْـقُـولَـةُ الـعُـمْـرِ[٥]

= دموعه، فكان الحوار لعنة منهم للشاعر الذي طلب منهم ألّا يتسرّعوا بل عليهم أن يعرفوا السبب أن وجه ليلى شعاع نوري، إذا ما برزت أغنت عن الشمس والبدر، لذا فإنها تمحي الظلمة بأنوار طلعتها البهية.

(١) الوهم: الخلد، الفكر الخاطر: الطارئ المفاجئ. فيؤدّها: يحيرها. العيان: المشاهدة. يطرأ على مخيّلة الشاعر رؤًى ضبابية ليست واضحة المعالم، يضطرب لها العقل ولا تتضح أمام ناظري.

(٢) يصف الشاعر حبيبته، فهي مرفّهة تعيش بنعمة الترف والجمال لذا لو التقى وجهها بالبدر لفاقه جمالاً وضياءً بيّناً.

(٣) مُلطَّخة الذرى: شعرها أسود فاحم. مهفهفة الخصر: رقيقة البطن ضامرة الخصر. يُطلعنا الشاعر على مفهوم جمالي يتمثّل بحبيبته؛ فإطلالة وجهها كالقمر، وشعر أسود قاتم يرفل فيه شباب وحيوية، وهي ذات ردفين رجراجين، وبطن ضامر، وخصر ناحل.

(٤) مُبتَّلة: مميّزة بصفاتها وأنوثتها، وتتوالى مواصفات المثال الجمالي لديها؛ فهي نموذج جمالي مميّز؛ فالقامة ممشوقة، والبطن ضامر، ممّا يدل على أنها ليست أكولة، بل هي رشيقة، ويزين وجنتيها حمرة الشباب ودفقه، وبسمة رقيقة تعلو ثغرها البديع.

(٥) خَدَلَّجة الساقين: ساقاها ممتلئتان، مفلّجة الأنياب: أنيابها منفرجة. العُمْر: لحم اللّثة. لا يزال الشاعر يتمّ رسم صورة حبيبته فهي ذات ساقين ممتلئين متناسقين، =

فَقَالُوا: أَمَجْنُونٌ؟ فَقُلْتُ: مُوَسْوَسٌ
أَطُوفُ بِظَهْرِ البِيدِ قَفْراً إلى قَفْرِ (١)

فلا مَلَكُ المَوْتِ المُرِيحِ يُرِيحُني
ولا أَنا ذُو عَيْشٍ ولا أَنا ذُو صَبْرِ (٢)

وصَاحَتْ بِوَشْكِ الْبَيْنِ مِنْهَا حَمَامَةٌ
تَغَنَّتْ بِلَيلٍ في ذُرَى نَاعِمٍ نَضْرِ (٣)

على دَوْحَةٍ يَسْتَنُّ تَحْتَ أُصُولِهَا
نَواقِعُ مَاءٍ مَدَّهُ رَصَفُ الصَّخْرِ (٤)

مُطَوَّقَةٌ طَوْقاً تَرَى في خِطَامِهَا
أُصُولَ سَوادٍ مُطْمَئِنٍّ على النَّحْرِ (٥)

أَرَنَّتْ بِأَعْلَى الصَّوْتِ مِنْها فَهَيَّجَتْ
فُؤاداً مُعَنًّى بِالْمَلِيحَةِ لَوْ تَدْرِي (٦)

= وبيضاء حرّة، مفلّجة الأسنان بتناسق بديع، صقلتهما يد الخالق العظيم فبدا تناسقها البديع.

(١) و (٢) هال هؤلاء وصف الشاعر لحبيبته على هذا النسق، ممّا حملهم على الظنّ بجنونه. فردّ عليهم بأن وسواس الجنون حمله على السياحة في الصحاري والبراري لا يقرّ له قرار ولا يستكين في مكان، وهو يطلب الموت ولا طائل إليه ولا طريق يؤدي به إليه بحثاً عن الخلاص من العذاب وطلباً لراحة البال؛ فالسعادة ما عرف لها طعماً، وافتقد الصبر، فما اهتدى إليه.

(٣) و (٤) ثمة حمامة، في عتمة الليل البهيم، تغني غناءً شجياً معلنة رحيل الأحبة، وقد اعتلت متربّعة دوحة وارفة الظلال، وفي أسفل الدوح ماء نهر يتفجر من بين الصخور بصوت مأنوس هادئ.

(٥) انتقل الشاعر إلى وصف تلك الحمامة المطوّقة، متمّماً صورة المشهد، يزين عنقها ريش خطّطته يد القدرة بريش خلاف ما يغطي جسدها من ريش، بينما يحيط منقارها سواد يستر رقبتها حتى النحر.

(٦) يشاركنا الشاعر بصوت الحمامة المطوّقة التي أرسلت نفساً بصوت شجيّ مرتفع =

فَقُلْتُ لها: عُودِي فَلَمَّا تَرَنَّمَتْ
تَبادَرَتِ العَيْنانِ سَحًّا عَلى الصَّدْرِ(١)
كَأَنَّ فُؤَادِيَ حِينَ جَدَّ مَسِيرُهَا
جَناحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضاً إلى الْوَكْرِ(٢)
فَوَدَّعْتُهَا وَالنَّارُ تَقْدَحُ في الْحَشَا
وَتَوْدِيعُهَا عِنْدِي أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ(٣)
وَرُحْتُ كَأَنِّي يَوْمَ رَاحَتْ جِمَالُهُمْ
سُقِيتُ دَمَ الْحَيَّاتِ حِينَ انقضى عمري(٤)
أَبِيتُ صَرِيعَ الْحُبِّ دَامٍ مِنَ الْهَوَى
وَأُصْبِحُ مَنْزُوعَ الفُؤَادِ مِنَ الصَّدْرِ(٥)
رَمَتْنِي يَدُ الأَيَّامِ عَنْ قَوْسِ غِرَّةٍ
بِسَهْمَيْنِ في أَعْشَارِ قَلْبي وَفي سَحْرِي(٦)

= حرّك مشاعر الشاعر وهيّج أشجانه وأحزانه، لتعلّقه وحبّه لإحدى الجميلات، فلو علمت الحمامة ما آل إليه أمر الشاعر لما فعلت.

(١) طلب الشاعر من الحمامة تكرار ما سمع؛ فأرسلت صوتها ثانية فاستجابت عيناه فانهمرت دموعه.

(٢) عاد الشاعر إلى لحظة المسير المحتّم، الركب على وشك الرحيل، فبدا قلبه كجناحي غراب أسود على وشك التحليق إلى وكره المعلّق في السماء.

(٣) كان الوداع مرّاً أشعل ناراً في أعماق الشاعر، ومرارته كالعلقم فبدا أشدّ مرورة من الصبر بما يرمز إليه من مرارة وأسًى.

(٤) داخل الشاعر إحساس قاتل يوم آذنت القافلة بالرحيل فكأنه تعاطى سم الحيات، حينها أحسّ بانقضاء العمر.

(٥) ليل الشاعر كنهاره: لا يعرف طعم النوم إلّا بعدما يستنفذ الحبّ ما يجري في عروقه من الحياة، فيتهالك ويرتمي طريح الفراش، ويعلن الفجر تباشير الصباح وقد نفد وقود قلبه آلاماً وأحزاناً.

(٦) غرّة: فجأة. سحري: رئتي. القضاء جارٍ في النفوس؛ فالدهر يصيب بنباله رمي =

بِسَهْمَيْنِ مَسْمُومَيْنِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقِ
فَغُودِرْتُ مُحْمَرَّ التَّرائِبِ والنَّحْرِ (١)
مُنايَ دَعِيني في الْهَوَى مُتَعَلِّقاً
فَقَدْ مِتُّ إِلَّا أَنَّني لَمْ يُزَرْ قَبْرِي (٢)
فَلَوْ كُنْتِ مَاءً كُنْتِ مِنْ مَاءِ مُزْنَةٍ
وَلَوْ كُنْتِ نَوماً كُنْتِ مِنْ غَفْوَةِ الفَجْرِ (٣)
ولَوْ كُنْتِ لَيْلاً كُنْتِ لَيْلَ تَوَاصُلٍ
وَلَوْ كُنْتِ نَجْماً كُنْتِ بَدْرَ الدُّجَى يَسْرِي (٤)
عَلَيْكِ سَلَامُ اللَّه يا غَايَةَ المُنَى
وَقَاتِلَتي حَتَّى القِيَامَةِ وَالْحَشْرِ (٥)

= عشواء دون سابق إنذار فيُدمي ويُؤلم، فثمّة سهمان أصابا مقتلاً دامياً؛ أحدهما أدمى القلب والآخر أدمى رئة الشاعر، وهما عضوان حسّاسان في كيانه.

(١) سهمان سامّان صوّبا من سماء عالية أصابا مقتلاً فإذا بالشاعر مدمى الجراح ينزف دماً وألماً من نحره وترائبه.

(٢) يوجّه الشاعر كلامه إلى حبيبته، فهي ما يتمنّاه ويحلو عيشه معها، إنه لا يزال يأمل لقاء يتعلّق به؛ فهو ميّت حيّ لم يدفن ليكون في عِداد الأموات، فيُزار قبره.

(٣) إنه بحاجة للإرواء، فالعطش يحرق الحلق، فلو كانت حبيبته ماءً لاستدرّ منها ما هو بحاجة إليه، فيبتلّ ريقه وتُستردّ إليه الحياة، وليل الشاعر سهد وأرق تتآكل صحوه الوساوس وبلابل الأفكار، فهو بحاجة إلى إغماضة جفن، ولو زار طيفها في هجعة الليل الأخير لغفل ونام.

(٤) لا يزال الشاعر يفتش عن أسباب الراحة، فلو كانت حبيبته ليلاً ينزل بساحته لركن واستراح وعرفت مقلتاه طعم النوم. ولو كانت نجماً يُضيء ظلمة ليله، يستهدي به ويناجيه ويبثّه لواعج قلبه.

(٥) يتمنّى الشاعر الخير لحبيبته؛ فهي غايته وأمله، في حال اللقاء، وإلَّا فإنَّها قاتلته مهما طال العمر، وحتى قيام الساعة، فأنت قاتلتي.